هلال الشعر في رمضان

عبد الكريم رياض محناية

عدا عن أنه شهر الفضل والخيرات وغير أن لطقوسه المتميزة وعاداته السامية القدرة على البوح بالجماليات الأخلاقية، إلا أنه الوحيد من بين الشهور الذي استحوذ على اهتمام الشعراء والأدباء، بسبب ما يتمتع به من خصائص أدبية وفنية مميزة، وهذا لما يحمله من قيم دينية، فهو مناسبة تعطي اللغة جمالية واضحة من خلال الوصف الممتع لصور الحياة الاجتماعية، وتوضيح الفرق بين طبقات المجتمع من خلال عاداتهم وتقاليدهم الرمضانية، وعلى الرغم من أن الاحتفال بهذا الشهر المبارك لا يقتصر على طبقة أو شريحة معينة من المجتمع، فإن لكل طبقة من طبقات المجتمع خصوصية واضحة في الاحتفال بهذا الشهر الكريم.

وكل من تمحص في تاريخ الأدب العربي القديم والحديث يرى التباين في مواقف الأدباء والشعراء من شهر رمضان، وذلك حسب اختلاف الأدباء وعصورهم، ومواكبتهم لهذا الشهر الكريم بمعانيه ودلالاته، باعتباره الشهر الذي يؤدي فيه المسلمون فرض الصيام، وفيه أُنزل القرآن، إضافة إلى أجواء الحياة الاجتماعية الخاصة برمضان، كموائد الفطور والسحور وصلاة التراويح، وليلة القدر والاستعداد لعيد الفطر، دون أن ننسى المسحراتي وأطباق الحلويات، وتصوير ما يصحب هذا الشهر الفضيل من بهجة وفرح لرؤية هلاله وقدومه والترحيب به، إذ نجد شعراء يُفتنون في وصفه، ويعدوه أمارة خير وبشرى، ومن ذلك قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي الأندلوسي:

قلت والناس يرقبون هلالاً ... يشبه الصب من نحافة جسمه
من يكن صائما فذا رمضان ... خط بالنور للورى أول اسمه

ويذكر البحتري هلال شهر رمضان حين أصبح قمرا يؤذن بطلوع شهر رمضان فيقول:

قم نبادر بها الصيام فقد أقمر ... ذاك الهلال من شعبان

بينما نصغي الشاعر والكاتب مصطفى صادق الرافعي يحيي رمضان فرحاً فيقول:

فديتك زائرا في كل عام ... يحيا بالسلامة والسلام
وتقبل كالغمام يفيض حينا ... ويبقى بعده أثر الغمام

ونتفكر بجواب الشاعر محمود حسن إسماعيل بين ثنايا سؤاله وهو يرحب بشهر الصيام:

أضيف أنت حل على الأنام ... وأقسم أن يُحيّا بالصيام
قطعت الدهر جواباً وفياً ... يعود مزاره في كل عام

واعتمد عليه الأمير تميم بن المعزّ لدين الله لبيان فضل الشهر الكريم ومدح الخليفة العزيز بالله

شهر الصيام أجل شهر مقبل ... وبه يمحص كل ذنب مثقل
وكذاك أنت أبر من وطئ الحصى ... وأجل أبناء النبي المرسل

ومن أحسن ما قيل في التهنئة بقدوم شهر رمضان:

نلت في ذا الصيام ما ترتجيه ... ووقاك الإله ما تتقيه
أنت في الناس مثل شهرك في ... الأشهر أو مثل ليلة القدر فيه

ولهبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك في التهنئة بقدوم شهر رمضان قصيدة طويلة تفنن في ثناياها بالمزج بين التهنئة بهذه المناسبة الدينية وإسباغ الصفات الدينية والنفسية المثلى على ممدوحه:

تَهَنَّ بهذا الصوم يا خير صائر ... إلى كل ما يهوى ويا خير صائم
ومن صام عن كل الفواحش عمره ... فأهون شيءٍ هجره للمطاعم

ويقول عمارة اليمني راسماً صورةً جميلة لممدوحه بالاعتماد على هلال عيده:

وهنئت من شهر الصيام بزائر ... مناه لو أن الشهر عندك أشهر
وما العيد إلا أنت فانظر هلاله ... فما هو إلا في عدوك خنجر

وللأمير تميم بن المعز لدين الله يهنئ الخليفة العزيز بالله بقدوم شهر رمضان فيقول:

ليهنك أن الصوم فرض مؤكد ... من الله مفروض على كل مسلم
وأنك مفروض المحبة مثله ... علينا بحق قلت لا بالتوهم

ويقول الشريف الرضي مهنئا الخليفة الطائع العباسي وبين كلماته المدح والنصح

تهن قدوم صومك يا إمامي تصوم مدى الزمان على الأنام
إذا ما المرء صام عن الدنايا فكل شهوره شهر الصيام

وتحدث الكثير من الشعراء العرب على مرّ العصور الإسلامية عن فضائل الشهر الكريم فقال أحدهم بعد أن اتخذ موقف الناسك الناصح المرشد:

أدِم الصيام مع القيام تعبداً فكلاهما عملان مقبولان
قم في الدجى واتل الكتاب ولا تنم إلا كنومة حائر ولهان
فلربما تأتي المنية بغتة فتساق من فرش إلى أكفان
يا حبذا عينان في غسق الدجى من خشية الرحمن باكيتان

وبعيداً عن الميزات الأدبية والخصائص الفنية المتميزة التي يتمتع بها هذا الشهر، نرى أنه عبارة عن دروس في الاقتصاد الإسلامي.

فالصوم فرصة للشعور بآلام الفقير ومعاناته وحرمانه، هؤلاء الفقراء الذين لا يجدون ما يسد رمقهم، هؤلاء الذين أكبر معاناتهم هي في ما يبقيهم على قيد الحياة، فما أحوج المسلم إلى أن يتذكر هؤلاء المحرومين والفقراء ويتكافل معهم، ويأخذ بأيديهم للرفع من مستواهم الاقتصادي، وهو ما يؤدي إلى تداول المال، وقيام نوع من التوازن الاقتصادي والاجتماعي.

يقول البحتري في لم الشمل بين المسلمين في هذا الشهر الفضيل:

بني الإسلام هذا خير ضيف إذ غشي الكريم ذرا الكرام
يلمكم على خير السجايا ويجمعكم على الهمم العظام
فشدوا فيه أيديكم بعزم كما شد الكمى على الحسام

ولهذا الشهر القدرة على تنمية الموارد البشرية فاغتنامه كفرصة لتدريب العنصر البشري على ضبط النفس وحسن التعامل مع الاخرين، هو ما ينعكس إيجاباً على نظام العمل، وتحقيق الترابط بين الأعضاء.

يقول أحد الشعراء:

يُجازَى الصائمون إذا استقاموا بِدار الخُلد و الحور المِلاحِ
فيا أحبابنا اجتهدوا وجِدُّوا لهذا الشهر من قبل الرَّواحِ

ولا يخفى على مسلم أن هدف الإسلام من صيام هذا الشهر هو انضباط المسلم بلجام التفكير بعقل سليم، والعيش بطريقة الحكمة النيرة، فلا تحركه العواطف والأهواء، ولا يستفذ للغضب عسى أن يلتزم بهذا السلوك في باقي الشهور وهذا ما وجه إليه أحد الأدباء في نصائحه.

وقال أحدهم وهو ليس شاعرا بل أديباً:

وليكُن في رمضان وغيره.. بصرُك من النظر إلى الحرام معدولا، وسمعُك عن سماع القبيح من القول معزولا، وبطنك من أكل الحرام محمولا، وقلبُك بالخير والإحسان مشغولا..

ورغم انشغال الأدباء بأهمية الشهر الكريم الدينية والاجتماعية إلا أنهم لم يهملوا الحلويات الرمضانية التي تصنع للصائمين في هذا شهر الخيرات حتى كانت تلك الأطعمة موضوعاً للكثير من القصائد.

فيقول الشاعر المصري الفاطمي ابن نباتة في وصف حلويات القطائف المشبعة بالقطر:

رعى الله نعماك التي من أقلها قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد له كفي فأهتز فرحة كما انتفض العصفور بلله القطر

ولبرهان الدين القيراطي قصيدة كتبها إلى القاضي نور الدين بن حجر والد القاضي شهاب الدين يقول فيها يمدحه بصفة الكريم بعد أن قدّم له وجبة القطائف:

مولاي نور الدين ضيفك لم يزل يروي مكارمك الصحيحة عن عطا
صدقت قطائفك الكبار حلاوة بغمر وليس بمنكر صدق القطا

والمعروف أن شهر رمضان يدور على فصول السنة كلها مرة كل ٣٣ عامًا، فيأتي في الصيف والشتاء والخريف والربيع، وبالطبع يكون أشد ما يكون في الصيف حين ترتفع درجة الحرارة، ويزيد شعور الصائمين بالظمأ كما يصف ذلك ابن الرومي مبالغاً:

شهر الصيام مبارك ما لم يكن في شهر آب
خِفت العذاب فصمته فوقعت في نفس العذاب

ويكمل المعنى نفسه شاعر آخر قائلاً:

اليوم فيه كأنه — من طوله يوم الحساب
والليل فيه كأنه — ليل التواصل والعتاب

أما في وداع هذا الشهر الكريم في الشعر فقد تنوع حيث كانت لا تخلو قصائد الشعراء من صور الدعابة والفكاهة حيناً والأسى لفراقه وتوديعه حيناً يقول أحد الشعراء مستذكراً أفعال الناس في رمضان:

جاء الصيام فجاء الخير أجمعه — ترتيل ذكر وتحميد وتسبيح
فالنفس تدأب في قول وفي عمل — صوم النهار وبالليل التراويح

بينما يصف الشاعر في هذه الأبيات كيف سيكون مآل الناس، وهل ستقبل أعمالهم عند الله تعالى أم ترفض:

أي شهر قد تولى — يا عباد الله عنا
حق أن نبكي عليه — بدماء لو عقلنا
كيف لا نبكي لشهر — مرَّ بالغفلة عنا
ثم لا نعلم أنا — قد قُبلنا أم حُرمنا
ليت شعري من هو — المحروم والمطرود منا

ويقول الشاعر الأبيوردي مودعاً رمضان وداع حبيب:

صوم أغار عليه فطر — كالنجم بر سناه جمر
بِنْ يا صيام فلم تزل — فرعًا له الإفطار بحر
وله الشهور وإنما — لك من جميع الحول شهر
ما كنت أول راحل — ودعت بالزفرات جمر
كالظعن ليلة فاح في — خيب التفرق منه عطر

ثم يأتي عيد الفطر وتبدأ التهاني بقدومه كما في قول شاعر الدولة الفاطمية تميم بن المعز:

أهنيك بالعيد الذي أنت عيده — ونور سنا إقباله حين يسطع

أما شاعر الدولة العباسية ابن المعز فيقول مهنئًا الخليفة:

لئن أتى العيد من لقياك في فرح — لقد مضى الصوم من منآك في ثكل
برزت فيه بروز الشمس طالعة — وقد أعاد الضحاء النفع كالطفل

ولمحمد بن الرومي:

ولما انقضى شهر الصيام بفضله — تجلى هلال العيد من جانب الغرب
كحاجب شيخ شاب من طول عمره — يشير لنا بالرمز للأكل والشرب

ولابن قلاقس:

وهلال شوال يقول مصدقًا — بيدي غصبت النون من رمضان

ولابن المعتز:

أهلاً بفطر قد أتاك هلاله — قد أثقلته حمولة من عنبر
فكأنما هو زورق من فضة — فالآن فاغد إلى السرور وبكِّر

ويهنئ الشاعر العباسي البحتري الخليفة المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد لصيام شهر رمضان ولحلول عيد الفطر:

بالبر صُمتَ وأنت أفضل صائم — وبسنة الله الرضية تُفطر
فانعم بعيد الفطر عيدًا إنه — يوم أغر من الزمان مُشهرُ

وفي التهنئة بالعيد ما كتبه ابن سكرة الهاشمي مهنئًا أبا الحسن محمد بن عمر:

أتاك العيد مقتبلاً جديدا — وجدّك فيه مقتبل جديد
تهني الناس بالأعياد فينا — وأنت لنا برغم العيد عيد